محمد بن الحسن الشيباني رحمة الله عليه

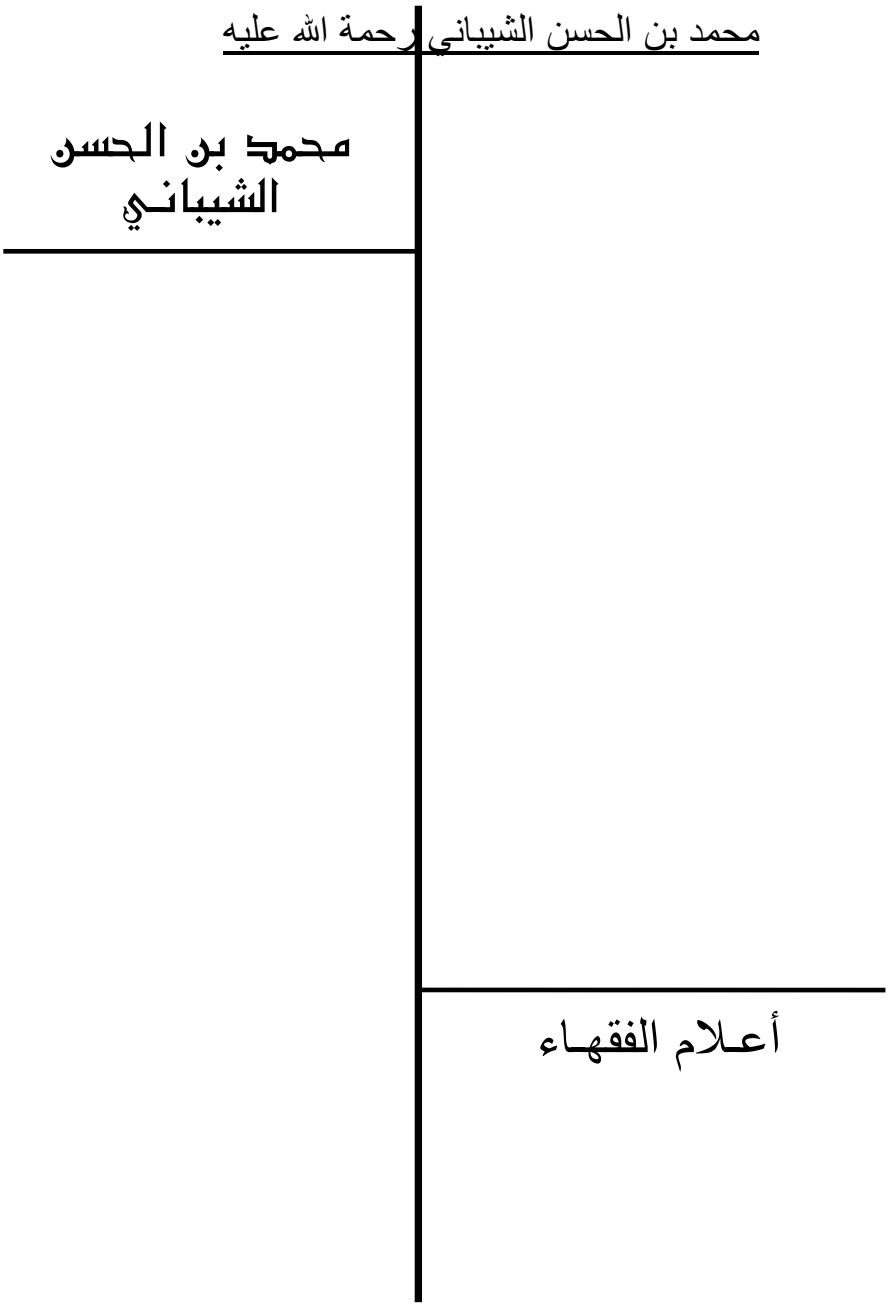

محمد بن الحسن الشيباني رحمة الله عليه

ولد في الشام ونشأ وتفقه في الكوفة، لم يكن سبب شهرته درايته بالفقه فقط ولكن زاد عليها التفنن في دروب اللغة العربية، وأهَّله علمه بالحديث والفقه وتفرده بعلوم اللغة العربية لتولي القضاء للخليفة العباسي هارون الرشيد ونال لدية الحظوة والمكانة الكبرى. ويوم وفاته رثاه الخليفة هارون الرشيد بقوله: " اليوم مات الفقه واللغة ".

إنه الفقيه اللغوي القاضي أبو عبد الله " الشيباني من قرية تسمى حرستي من أعمال دمشق قدم أبوه العراق فولد محمد بواسط سنة اثنتين وثلاثين ومائة ونشأ بالكوفة وسمع العلم من الإمام الأعظم أبي حنيفة والأوزاعي والإمام مالك والثوري ومسعر بن كدام وروى عنه الإمام الشافعي وغيره من العلماء الكرام والمشايخ العظام. ولعله اشتهر أيضاً بطول ملازمته للإمام مالك وأخذ الحديث عنه.

ولاه الرشيد القضاء حين خرج معه إلى خراسان ومات بالري سنة تسع وثمانين ومائة وهو ابن ثمان وخمسين سنة ومات الكسائى بعده بيومين. وحكي أنهما ماتا في يوم واحد فقال الرشيد: " دفن الفقه واللغة في الري ". وتشاءم به. وقيل في مرثيتهما.

تصرمت الدنيا فليس خلود ::: لما قد نرى من بهجة ستبيد
ألم تر شبابنا إذا ما ابتلوا البلى ::: وأن الشباب الغض ليس يعود
سيأتيك ما أفنى القرون التي مضت ::: فكن مستعدا للقاء عتيد
أسبلت على قاضي القضاة محمد ::: وأذريت دمعي والفواد عميد
وأوجعني موت الكسائي بعده ::: وكادت بي الأرض الفضاء تميد

" وذكر " السمعاني عن هشام بن عبد الله الذي توفي الإمام في بيته أنه لما حضرته الوفاة بكى فقيل في ذلك فقال: إذا أوقفني الله تعالى بين

يديـــــــــــــــــه وقـــــــــــــــــــــــال:
يـا محمـد مـا أقدمك علـى الـري أمجاهـد فـي سـبيلي أم ابتغـاء مرضـاتي مـا أقول؟.

وقد أثني عليه العلماء والأئمة والفقهاء فعن الشافعي قال: جالسته عشر سنين وحملت من كلامه حملي جمل لو كان يكلمنا على قدر عقله ما فهمنا كلامه لكن كان يكلمنا على قدر عقولنا.

قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: قال لـي محمد بن الحسن: (أقمت على مالك ثلاث سنين، وسمعت من لفظه سبعمئة حديث). قال ابن حجر: (وكان مالك لا يحدث من لفظه إلا نادراً). أقول: إنما كان مالك في يطلب من أحد تلامذته أن يقرأ عليه. فهذا النص يدل على شدة ملازمة محمد بن الحسن لمالك.

و قال الشافعي: (ما رأيت سميناً أخف روحاً من محمد بن الحسن، وما رأيت أفصح منه. كنت إذا رأيته يقرأ، كأن القرآن نزل بلغته. حمل جمل من العلم).

وقال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: (حملت عن محمد وقر بعير كتباً). وقال الشافعي: (لو أشاء أن أقول أن القرآن نزل بلغة محمد بن الحسن، لقُلته، لفصاحته). وقال الشافعي: (ما رأيت أعقل من محمد بن الحسن). وقال الشافعي: (ما ناظرت أحداً إلا تَمَعَّرَ وجهه، ما خلا محمد بن الحسن). وهذا يدل على قوته في المناظرة.

قال الشافعي: لو أنصف الناس الفقهاء لعلموا أنهم لم يروا مثل محمد بن الحسن ما جالست فقيهًا قط أفقه منه ولا فتق لساني بالفقه مثله لقد كان يحسن من الفقه وأسبابه شيئًا يعجز عنه الأكابر..

قال أبو عبيد: (ما رأيت أعلم بكتاب الله من محمد بن الحسن).

قال المعلمي في " التنكيل ": (ومن تدبّر مناظرات الشافعي لمحمد،

وجدها مناظرة الأكفاء، وعلم منها أن الشافعي كان حينئذ مجتهداً كاملاً، وأن محمداً كان - مع مكانته من الفقه والسن والمنزلة من الدولة وكثرة الأتباع - على غاية من الإنصاف في البحث والنظر. والإنصاف: أنه كان لتلك المناظرات أثرٌ في الرجلين، فاتفقا على مسائل رجع فيها الشافعي عما كان يتابع فيه مالكاً، أو رجع محمد عما كان يتابع فيه أبا حنيفة).

والإمام الشافعي على كثرة ترحلاته ولقاءه بأهل العلم واللغة لم يلق أفصح من محمد بن الحسن، فأي منقبة وميزة بعد ذلك؟.

لقد كان الإمام محمد بن الحسن الشيباني من الأئمة المجتهدين والفقهاء الكبار ومن المحدثين.

وأثنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية، ووصفه بأنه أعلم أصحاب أبي حنيفة بالحديث.

ولقد كان يتبع الدليل ويعظمه، وقد خالف أبا حنيفة في ثُلثي مذهبه كما ذكر ذلك الإمام القاضي ابن أبي العز الحنفي شارح الطحاوية في كتابه القيم " الاتباع ".

وما يُحكى من أنه كان جهمياً فمعاذ الله أن يكون كذلك؛ كيف وقد ذكره الإمام الطحاوي في مقدمته للعقيدة الطحاوية.

كتب الشافعي إلى محمد بن الحسن وقد طلب منه كتبه لينسخها فأخرها عنه فكتب إليه:

قل لمن لم تر عين مـــن رآه مثلـــه ::: ومن كأن من رآه قد رأى من قبله
العلم ينهى أهله أن يمنعـــوه أهلـــه ::: لعلـــــه يبذلـــــه لأهلـــــه لعلـــــه

قال: فأنفذ الكتب إليه من وقته [1].

مواقف من حياته رحمه الله:

(1) أخبار أبي حنيفة، 1 / 125.

فلا تباع السنة:

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: كنا مع محمد بن الحسن إذ أقبل الرشيد فقام الناس كلهم إلا محمد بن الحسن فإنه لم يقم وكان الحسن بن زياد ثقيل القلب على محمد بن الحسن فقام ودخل ودخل الناس من أصحاب الخليفة فأمهل الرشيد يسيرًا ثم خرج الأذن فقام محمد بن الحسن ودخل وجزع أصحابه فأمهل ثم خرج طيب النفس مسرورًا فقال: قال لي مالك لم تقم مع الناس قال: قلت كرهت أن أخرج عن الطبقة الذين جعلتني فيهم إنك أهلتني للعلم وكرهت أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه وإن ابن عمك صلى الله عليه وسلم قال:♂**من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار**═ وإنما أراد بذلك العلماء فمن قام بحق الخدمة وإعزاز الملك فهو هيبة للعدو ومن قعد فلا تباع السنة التي منكم أخذت وهو دين لكم قال: صدقت يا محمد ثم سارني[1].

والله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع الموت علي:

بعث هارون الرشيد إلى محمد بن الحسن فأحضره مجلسه ثم بعث إلى الحسن بن زياد فأحضره وأحضر رجلاً من الطالبيين وأحضر كتاب أمان فدفعه إلى محمد بن الحسن فقرأه وقال: ما تقول فيه قال: هذا أمان صحيح ورفع صوته وقال: يا أمير المؤمنين هذا أمان صحيح ودم هذا الرجل الذي كتب له الكتاب حرام فأمر بالكتاب فأخذ من يده ودفع إلى الحسن بن زياد فأخذه فقرأه وقال بصوت ضعيف هذا أمان فغضب هارون ودخل أبو البختري وهب بن وهب القاضي فمد يده فأخذ الكتاب ولم يؤمر بذلك فقرأه ثم أخرج سكينًا من خفه فقطعه نصفين ثم رمى به وقال: هذا كتاب مفسوخ وليس بأمان بل هو أمان فاسد أقتل هذا الرجل ودمه في عنقي فأخذ هارون دواة كانت بين يديه فضرب بها وجه محمد بن الحسن فشجه قال ابن سماعة وكنت حاضرا فخرج وخرجت على إثره وهو يبكي فلما صار إلى

(1) أخبار أبي حنيفة، 1 / 126.

منزله قلت: يا أبا عبد الله لم تبكي من شجة في سبيل الله؟ فقال: والله ما لها بكيت قال قلت: فأي تقصير كان منك قال: كان يجب علي أن أقول لأبي البختري من أين قلت؟ وأقيم عليه الحجة وأتكلم بالحق وإن قتلت ثم قال: وأي حجة لقاض من قضاة المسلمين يكون في خفه سكين مثل هذه قال: وقال الطالبي يومئذ لهارون: يا هارون اتق الله تقول لفقيهي الأرض لما لم يريا في أمانك سفك الدماء وقالا لك دع هذه النسمة تموت بأجلها وتنعم عليها وتقبل قول رجل مشهور أنه ادعى نسبًا لم يقر أبوه الذي ادعاه به فأخرج أبو البختري يومئذ من نسبه الذي ادعاه ثم قال له: سل عنه مزبلي أهل المدينة الذين يزبلون في الحمامات حتى يخبروك بعلامات في ظهره يصفونها للناس ومثل هذا لا يجوز أن يقول غير هذا والله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع الموت علي ولا أموت إلا بأجلي[1].

لا تسألوني حاجة من حوائج الدنيا:

يقول: قال محمد بن الحسن لأهله: لا تسألوني حاجة من حوائج الدنيا فتشغلوا قلبي خذوا ما تحتاجون إليه من وكيلي فإنه أقل لهمي وأفرغ لقلبي.

وإنما كان أبوه طبالا بالمدينة:

قال أبو حازم: لما أشخصني الرشيد ليقلدني القضاء بالشام وردت مدينة السلام فلقيت أبا يوسف وهو الذي سماني وأشار بي فقلت له: من حقي عليك ولزومي لك وتصييري لك أستاذًا وإمامًا أن تعفيني عن هذا الأمر فقال لي: أنا راكب معك إلى يحيى بن خالد فأكلمه فركب معي إلى يحيى بن خالد فلما دخلنا عليه زال له يحيى عن مصلاه فقعد معه عليه وقعدت بباب البيت فسمعته يقول له: هذا محمد بن الحسن ومن حاله كذا ومن حاله كيت وكيت يصفني وذكر امتناعي عليه فقال له يحيى: ما تقول فيه؟ قال: أقول إنكم إن أعفيتموه لم تجدوا مثله فلما سمع يحيى كلامه لم

(1) أخبار أبي حنيفة، 1 / 127.

يلتفت إلى ما أقول وأمضى أمري فلما ورد الرشيد الرقة أحضرت فدخلت إليه أنا والحسن بن زياد اللؤلؤي وأبو البختري وهب بن وهب فأخرج إلينا الأمان الذي كتب ليحيى ابن عبد الله بن الحسن فدفع إلي فقرأته وقد علمت الأمر الذي أحضرنا له فمثلت بين أن أظهر شيئًا إن كان يتعلق به فيه فأوجده السبيل إلى قتل الرجل أو أترك الطعن عليه مع ما أعلم أنه ينالني من موجدة الرشيد فآثرت أمر الله والدار الآخرة فقلت هذا أمان مؤكد لا حيلة في نقضه فانتزع الصك من يدي ودفع إلى اللؤلؤي فقرأه وقال كلمة ضعيفة لا أدري سمعت أو لم تسمع هذا أمان فانتزع من يده ودفع إلى أبي البختري فقرأه ثم قال ما أرجيه ولا أرضاه هذا رجل سوء قد شق العصا وسفك دماء المسلمين وفعل وفعل فلا أمان له ثم ضرب بيده إلى خفه وأنا أراه واستخرج سكينًا فشق الكتاب بنصفين ثم دفعه إلى الخادم ثم التفت إلى الرشيد فقال: اقتله ودمه في عنقي قال: فقمنا من المجلس وأتاني رسول الرشيد أن لا أفتي أحدًا ولا أحكم فلم أزل على ذلك إلى أن أرادت أم جعفر أن تقف وقفًا فوجهت إلي في ذلك فعرفتها أني قد نهيت عن الفتيا فكلمت الرشيد فأذن لي قال محمد بن الحسن: فكنت وكل من في دار الرشيد يتعجب من أبي البختري وهو حاكم وفتياه بما أفتى به وتقلده دم رجل من المسلمين ثم من حمله في خفه سكينا قال: ولم يقتل الرشيد يحيى في ذلك الوقت وإنما مات في الحبس بعد مدة قال محمد بن سماعة في حديثه: ثم قرب الرشيد محمد بن الحسن بعد ذلك وتقدم عنده وولاه قضاء القضاة وحمله معه إلى الري فتوفى هو والكسائي بها في يوم واحد فقال الرشيد: دفنت الفقه والنحو بالري قال بكر العمى في حديثه: إن محمد بن الحسن لما أفتى بصحة الأمان وأفتى أبو البختري بنقضه وأطلق له دمه قال له يحيى: يا أمير المؤمنين يفتيك محمد بن الحسن وموضعه من الفقه موضعه بصحة أماني ويفتيك هذا بنقضه وما لهذا والفتيا وإنما كان أبوه طبالاً بالمدينة.

وعن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال: أنا حاضر هذا كله من هارون ومحمد بن الحسن وزاد فيه فلما خرج محمد جعل يبكي حتى كثر بكاؤه فقلت له: يا أبا عبد الله أتبكي هذا البكاء من أجل هذه الشجة؟ وذلك أن الرشيد رماه بدواة فشجه وسالت الدماء على وجهه وثيابه وقال له: إنما يقوى عزم هذا وأمثاله في الخروج علينا أنت وأمثالك فقال: لا والله ما من أجلها أبكي ولكني أبكي لتقصيري قلت له: وأي تقصير كان منك وقد قمت مقامًا ليس لأحد على وجه الأرض أشرف منه فقال: قد كان ينبغي لما قال أبو البختري ما قال أن أقول له: من أين قلت ذلك؟ حتى أقيم عليه الحجة بفساد ما قاله [1].

بيني وبين النور ستر فارتفع عني:

قال محمد بن سماعة: كان عيسى بن أبان حسن الوجه وكان يصلي معنا وكنت أدعوه إلى أن يأتي محمد بن الحسن فيقول: هؤلاء قوم يخالفون الحديث وكان عيسى حسن الحفظ للحديث فصلى معنا يوما الصبح فكان يوم مجلس محمد فلم أفارقه حتى جلس في المجلس فلما فرغ محمد أدنيته إليه وقلت له هذا ابن أخيك أبان بن صدقة الكاتب ومعه ذكاء ومعرفة بالحديث وأنا أدعوه إليك فيأبى ويقول: إنا نخالف الحديث فأقبل عليه وقال له: يا بني ما الذي رأيتنا نخالفه من الحديث لا تشهد علينا حتى تسمع منا فسأله يومئذ عن خمسة وعشرين بابًا من الحديث فجعل محمد بن الحسن يجيبه عنها ويخبره بما فيها من المنسوخ ويأتي بالشواهد والدلائل فالتفت إلي بعدما خرجنا فقال: كان بيني وبين النور ستر فارتفع عني ما ظننت أن في ملك الله مثل هذا الرجل يظهره للناس ولزم محمد بن الحسن لزومًا شديدًا حتى تفقه.

قال ذاك في أعلى عليين:

(1) أخبار أبي حنيفة، 1 / 128.

قال محمد بن أبي رجاء القاضي: سمعت أبي قال: رأيت محمد بن الحسن في المنام فقلت: ما صنع بك ربك؟ قال: أدخلني الجنة وقال لي: لم أصيرك وعاءًا للعمل وأنا أريد أن أعذبك قال: قلت فأبو يوسف قال: ذاك فوقي أو فوقنا بدرجة قال: قلت فأبو حنيفة قال: ذاك في أعلى عليين [1].

* * *

(1) أخبار أبي حنيفة، 1 / 125.